١ ـ "صراع الحضارات": نقد تحليلي[١]

لقد مرت عشر سنوات حتى الآن منذ أن صعق رئيس إدارة التخطيط السابق بوزارة الخارجية الأمريكية فرنسيس فوكوياما Francis Fukuyama العالم بمقالته المؤثرة حول "نهاية التاريخ"[٢]. والتي تنبأ فيها بالعولمة الشاملة لنموذج الحضارة الغربية. ومرت سبع سنوات حتى الآن منذ أن كشف صمويل هنتنجتون Samuel Huntington في مناقضته لفوكوياما عن توقعاته المبطنة "صراع الحضارات؟"[٣] التي أذهل بها العالم

(١) هي ورقة الدكتور مراد ولفريد هوفمان التي قدمها في سلسلة المحاضرات التي ألقيت في ذكرى كرم مراد في لاهور في ٢٥ فبراير (شباط) ٢٠٠٠ وقد وضع معهد الدراسات السياسية هذا البرنامج إحياءً لجهود كرم مراد (المتوفى عام ١٩٩٦) الهادفة إلى إغناء فكر وحضارة الإسلام. وقد ألقى الدكتور هوفمان ثلاث محاضرات، الأولى في إسلام آباد (٢٤ فبراير)، والمحاضرتين الثاني والثالثة في لاهور وكراتشي (٢٧ فبراير). والدكتور هوفمان فقيه ألماني معروف اعتنق الإسلام، وقد عمل مديرًا لشؤون حلف شمالي الأطلسي والشؤون الدفاعية بوزارة الخارجية الألمانية (١٩٧٩-١٩٨٢) ثم مديرًا لإدارة الإعلام بحلف شمالي الأطلسي في بروكسل (١٩٨٣-١٩٨٧)، ثم سفيرًا لألمانيا لدى الجزائر (١٩٨٧-١٩٩٠)، وسفيرًا لألمانيا لدى المغرب (١٩٩٠-١٩٩٤).

(٢) نهاية التاريخ"، فرنسيس فوكوياما، ناشونال إنترست. ١٦ صيف ١٩٨٩م.

(٣) صراع الحضارات؟"، صمويل ب. هنتنجتون، فورن أفيرز (نيويورك)، المجلد ٧٢، العدد ٣، صيف ١٩٩٣م.

الإسلامي. ولا زالت ردود فعل علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلماء الاجتماع والمؤرخين والمستشرقين وعلماء السياسة تتوالى على هاتين الفرضيتين.

يصر هنتنجتون على أنه لم يخرج بنبوءة لا بد وأن تتحقق، وأن صراعًا بين الحضارات لا شك آتٍ. غير أن الحديث مع محب الرحمن[1] - البروفسور الأمريكي قد أدى بالتأكيد إلى نشوء "صراع أفكار" أو "إخصاب فكري بين الحضارات".

النقد التحليلي:

جوبه صمويل هنتنجتون بفيض من النقد وشحٍ في المديح حتى داخل الدوائر العلمية الغربية. وفي الواقع كانت مقالات المعلقين السبعة في العدد التالي من مجلة الشؤون الخارجية Foreign Affairs (عدد خريف ١٩٩٣) تعارضه بحدة. وقد تمكن هنتنجتون منذ ذلك الحين من إيضاح موقفه وإزالة بعض الانطباعات الخاطئة. وفيما يلي بعض النقاط الهامة:

---

(١) صراع حضارات أم صراع أفكار؟ محب الرحمن. الميزان، المجلد ١، العدد ١، لندن، ١٩٩٦م.

أ) إن هنتنجتون، على نقيض فوكوياما، تشاؤمي النظرة من حيث انتصار الحضارة الغربية في جميع أنحاء العالم. فالغرب قد يستطيع اجتياح العالم بروائع بيل جيتس (Bill Gates) عملاق صناعة برامج وأجهزة الحاسب الآلي ومؤسس شركة مايكروسوفت (Microsoft)، وأن يجعل الجميع يشرب الكوكاكولا، ولكن هذا لا يؤثر بالضرورة على المكونات الحقيقية للحضارة: اللغة، وذاكرة التاريخ، والدين. ويرى هنتنجتون أن العالم يتحول بدرجة أكبر إلى ضيق أفق التفكير وليس إلى الانفتاح العالمي المتحرر من "الأنا" القومية، مع تزايد العصبية العرقية في كل مكان؛ لذلك فإنه يقول في فرضيته بأن "الغرب فريدٌ ولكنه ليس كونيًا"[1] ويقول في مقاله تحت ذلك العنوان: "الإمبريالية هي النتيجة الحتمية والمنطقية للكونية... الاعتقاد بوجوب اعتناق الشعوب غير الغربية قيم الغرب وتبنِّيها لمؤسساته وحضارته، يعد - إذا حملناه على محمل الجد - لا أخلاقي في مدلولاته... ومشروع نشوء عالم

(١) الغرب: فريد، وليس كونيًا". فورن أفيرز، المجلد ٧٥، العدد ٦، شتاء ١٩٩٦م.

متجانس في تكوينه وغربي في شموليته الكونية.. إنما هو مشروع مضلَّل، متعجرف، وهمي، مزيف، وخطر"[١].

ب) الإيضاح الثاني يتوافق مع الأول، وهو يتناول العلاقة بين التحديث والتغريب. فمن الواضح أن مصطفى كمال أتاتورك (١٨٨١-١٩٣٨) قد آمن بأن تحديث تركيا لا يتحقق دون تغريبها. وقد رفعت حكومات كثيرة منذ ذلك الحين لواء هذه العقيدة. هنا أيضًا يخالف هنتنجتون هذا الرأي ويشير إلى أنه لا المجتمعات التقليدية ولا المجتمعات الحديثة متشابهة بالضرورة. فكما أثبتت اليابان وسنغافورة والمملكة العربية السعودية، يمكن فعلاً استيعاب طرق الإنتاج والاتصالات الحديثة مع المحافظة على حضارة البلد. وهذا ممكن، فكما يقول طلال أسعد[٢]، ابن محمد أسعد: التقاليد والتجديد "ليسا حدثين مستقلين للحضارة أو المجتمع، بل وجهين للتكوين التاريخي للحضارة أو المجتمع".[٣] ويقول هنتنجتون أيضًا:"

(١) نفس المصدر، ص ٢٨، ٤١ .

(٢) طلال أسعد، مقابلة، جوردان تايمز، عمان، الأردن، ٢٢ يوليو (تموز) ١٩٩٧ .

(٣) "الغرب:فريد.." المرجع السابق، ص ٩٧ .

لقد كان الغرب غربيًا قبل أن يصبح حديثًا".[١] ويلاحظ كذلك أن "الكثير من دول العالم آخذة في التحول لتصبح أكثر حداثة وأقل غربية".[٢]

وأضيف هنا أنني كنت موجودًا في الرياض في العام ١٩٦٦ عندما زار البروفسور هنتنجتون المملكة العربية السعودية للمرة الأولى - بعد مضي ثلاث سنوات على كتابته "صراع الحضارات". وكان من الواضح آنذاك أنه قد أدرك التوافق بين الحداثة والإسلام، ولكن بعد فوات الأوان.

ج) هناك نقطة ثالثة طرحت أثناء المناقشات: إن فرضية هنتنجتون - على الرغم مما تتضمنه من حديث عن الحدود والصراعات الدامية - ليست هجومية بل دفاعية. وهو في الحقيقة لا يرى فقط أن الحضارة الغربية في انحسار، بل ويرى أيضًا أن الهيمنة الأمريكية في تراجع. وقد انصب اهتمامه على حماية تلك الحضارة من نشوء ظواهر كانبعاث جديد للإسلام.[٣]

---

(١) نفس المصدر، ص ٣٠ .
(٢) نفس المصدر، ص ٣٨ .
(٣) نفس المصدر، ص ٣٧، ٤٠، ٤١ .

والملفت أن مقابلته مع صحيفة دي فيلت Die Welt الألمانية في العام ١٩٩٧م ظهرت تحت عنوان: "لم يضع الغرب بعد". فهل يبدو ذلك هجوميًا؟ إن غرب هنتنجتون يصارع مدافعًا عن وجوده في مواجهة جميع الحضارات الأخرى.

بعد أن أوضحت كل هذا، ننتقل الآن لتناول المسائل الأساسية للمناظرة التي نشأت عن رؤية هنتنجتون وفوكوياما للتاريخ والتي تشبه أفلام الرسوم المتحركة.

الحضارة الإسلامية:

السؤال الأول الذي يحتاج إلى إجابة فيما يتعلق بالحضارة الإسلامية هو: هل هناك أي وجود لما يسمى بالحضارة الإسلامية؟ فإذا كانت موجودة، هل هي مختلفة في جوهرها عن الحضارات الأخرى؟

أ) ما من أحد ينكر وجود خصائص مشتركة بين أجزاء العالم الإسلامي برمته، وقد لا يكون من السهل تعريف ما الذي يجعل فن المشغولات الإسلامية إسلاميًا، ولكن يستطيع أي طفل تمييز المشغولات الإسلامية عن غيرها. ويقين أن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة واللغة العربية، وفريضة

الحج إلى بيت الله الحرام، كلها تجعل المسلمين "جياداً من لونٍ (أو عبقٍ) واحدٍ حسب "التعبير الأمريكي".

ولكن رغم ذلك هناك حقيقة أخرى لا تقل في الأهمية، وهي أن هذه الحضارة متغايرة الخواص وليست كلية التناغم في عناصرها. فالذي يزور الهند أو ماليزيا أو اندونيسيا أو المغرب أو تركيا أو مصر، يدرك يقيناً في أي بقاع الأرض هو. فقد استوعبت القوميات الإسلامية بنجاح الحضارات السابقة لتجعلها ثقافة إسلامية وعلى الأخص من حيث الأطعمة وطريقة اللباس والعادات الاجتماعية واللغات.

لهذا السبب، يمكن أن ينشأ صراع بين وجهين مختلفين من أوجه الحضارة الإسلامية، ولكنه لا يمكن أن ينشأ ضد الحضارة الإسلامية ككل.

ب) يجب أن نرفض وبحزم أشد الافتراض القائل بأن الثقافة الإسلامية تختلف من حيث الجوهر عن أي ثقافة أخرى. فهذه الجوهرية ليست سوى "التعميمية" الثقافية التي دحضها إدوارد سعيد في كتابيه "الاستشراق "Orientalism"[١] و"عن الإسلام Covering Islam"[٢]

(١) الاستشراق، إدوارد سعيد، روتليدج وكيجان بول، لندن، ١٩٧٨م.
(٢) عن الإسلام، إدوارد سعيد، روتليدج وكيجان بول، لندن، ١٩٨١م.

هذه الطريقة في النظر إلى المسلمين هي بالطبع ليست جديدة. فقد تم تعريف الإسلام منذ أيام فولتير Voltaire (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨)، وهيجل Hegel (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) وماكس ويبر Max Weber (١٨٦٤ ـ ١٩٢٠) من حيث الاختلافات والفجوات القائمة بينه وبين النموذج الغربي الإلزامي - كما لو كان المسلمون بفعل تكوينهم العقائدي غير قادرين على تأييد الفردية، أو الحس بالحقوق المدنية، أو العقلانية.[١] وقد تعامل هؤلاء مع نظام الحكم المطلق في الشرق كما لو كان مرضًا وراثيًا. فالإسلام في رأي ماكس ويبر "دين حرب". بينما رأي جوستاف فون جرونينباوم Gustave von Grunenbaum في الحضارة الإسلامية "كيانًا لا يشاركنا في تطلعاتنا الأساسية".[٢]

وقد تم تصوير الإسلام في العهود القريبة كدينٍ ولعٍ بالحرب والقتال، والشرق الأدنى منطقة أزمات بامتياز، كل ذلك وببساطة بفعل التركيز الغربي على البترول وعلى

(١) الإسلام والمعالجة السياسية للحداثة، أرماندو سلفاتوري، ردنج، المملكة المتحدة، ١٩٩٧، ص ٧٣ .

(٢) نفس المصدر، ص ١٠٢، ١٢١ .

إسرائيل. منطقة "البترول والفوضى" حسب تعبير إدوارد سعيد.[١] فالعرب يصوَّرون اليوم على أنهم "أصحاب بلايين، ومفجرين انتحاريين، وراقصات شرقيات".[٢] وهذا الأسلوب الضّاري في قولبة الآخرين في ديمومة التطرف ليس سوى "تأنق في ادعاء الحضارة".[٣] فالنظر إلى العالم من منظار أوجه الاختلاف - وليس التشابه - بين شعوبه تعززه لربما الطبيعة الثنائية لتقنية الحاسب الآلي، ففيها الأشياء تكون إما (٠) أو (١)، أبيض أو أسود، غربي أو شرقي.

بيد أن الإسلام يمكن أن يعكس صورة العدو المفضل للغرب، ليس لأن الإسلام غريب، ولكن لأن الإسلام يتميز بخصائص مشابهة جدًا للخصائص الأساسية للحضارة الغربية.[٤] وحتى هنتينجتون يعترف بأن العنف في الإسلام لا يزيد عنه في أية ديانة أخرى.[٥]

---

(١) عن الإسلام، إدوارد سعيد، لندن، ١٩٨١، ص ١٥ .

(٢) "شاهين، العربي التلفزيوني"، بولينج جرين، أوهايو، الولايات المتحدة الأمريكية، ص ١٣ .

(٣) بين الشرق والغرب، ظفر سينوساك، مجلة دي زيت، هامبورغ، ألمانيا، ٢٦ مايو ١٩٩٥، ص ٥٥ .

(٤) نفس المصدر، ص ٥٥ .

(٥) "لم يضع الغرب بعد"، صمويل هنتينجتون، مقابلة مع الصحيفة اليومية دي فيلت، هامبورج، ألمانيا، ٢٩/٢٨ يونيه ١٩٩٧، ص ٤٨ .

طبيعة الصراعات المستقبلية:

يمكن التشكيك أيضًا بفرضية أن الصراعات المستقبلية سوف تنشأ على الحدود الثقافية وليس على الحدود القومية.

أ) يبدو أن هذا الافتراض مشكوك فيه، ولربما كان متأثرًا بحقيقة أن سيطرة الدول القومية على شؤونها في انحسار! فالعولمة تجعل السياسات الاقتصادية الوطنية على سبيل المثال شبه مستحيلة التطبيق إذا تعارضت مع الاتجاهات العالمية، فلم تعد لأية دولة أية سيادة من حيث السياسة المالية، وأسعار الفائدة، والضرائب، والحد الأدنى للأجور، وما شابه ذلك، ليس فقط بسبب أن المنظمات الدولية، كالاتحاد الأوروبي أو منظمة التجارة العالمية، أخذت الآن تلعب دورًا متزايدًا في تنظيم هذه الأمور، ولكن الأسوأ من ذلك هو أن المؤسسات المالية العالمية أصبحت بفضل الإنترنت قادرة على التهرب من السيطرة القومية لأية دولة بتحويل رساميلها فورًا إلى أي مكان في العالم، مع كل ما ينجم عن ذلك من آثار مدمرة على الاقتصاديات المحلية، والدرس القاسي الذي تعلمته ماليزيا أصدق مثال على ذلك. ولكن هذا لا يعني أن الصراعات

العسكرية سوف تنشب الآن بين الحضارات بدلاً من نشوبها بين القوى العظمى والقوى الأضعف وتحالفاتها العسكرية.

ب) ومن جهة أخرى، فإنني أعتقد بأن الصراعات العسكرية عبر التاريخ قد نشبت دائمًا نتيجة تصدعات ثقافية، فالحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية لم تندلع بين الشعوب البريطانية والفرنسية والألمانية، ولكن أيضًا بين ثقافات بريطانيا وفرنسا وألمانيا، والتي كانت في تلك الأيام متباعدة جدًا وليست متقاربة كما هو الحال اليوم. وحتى الحرب الأهلية الأمريكية كانت بين ثقافتين، ثقافة الشمال وثقافة الجنوب، ضمن دولة واحدة. فالجنوب كان يحارب دفاعًا عن "عيشة الرغد الأرستقراطية"، وهو مفهوم كان غريبًا عن فكر الشمال.

ما هو مفهوم الصراع:

إلى هنا أصبحنا مستعدين لمواجهة فكرة "الصراع" بين الحضارات بحد ذاتها - وهي فكرة غريبة ولا شك. فمما نعرفه عن تطور الحضارات، لم تكن هناك أبدًا عبر التاريخ

المعروف أي نقطة صفر. فقد كان الكل يربح من العلاقات القائمة فيما بينهم، وكان الكل يستفيد من إنجازات الآخرين - ومنها انتقال الأعداد الهندية إلى الغرب، وهي ما نسميه في أوروبا "الأعداد العربية" على الرغم من أن العرب لم يضيفوا إليها سوى الصفر (وهو أهمها باعتراف الجميع).

البحر الأبيض المتوسط الذي يفترض بأنه يفصل الغرب عن المسلمين في الشمال والشرق، لم يشكل أبدًا حاجزًا فقط ولكنه كان دائمًا جسرًا أيضًا ,وحتى في خضم الحروب الصليبية، لم يتوقف التبادل الاقتصادي والثقافي والتفاعل والإخصاب الفكري المتبادل. وأود هنا أن أدلل على هذه الحقيقة ببعض الأمثلة المدهشة:

- ❖ سافر الفيلسوف الديني الكتالوني رايموندوس لولوس Raymondus Lullus (١٢٣٢ ـ ١٣١٦) إلى جزيرة صقلية المسلمة وشمال إفريقيا كمبشر مسيحي يدعو إلى السلام مع العالم الإسلامي. ولم يلحق به أي أذىً.
- ❖ سافر القديس فرنسيس الأسيزي Francis of Assisi (١١٨٢ ـ ١٢٢٦) إلى الشرق الأدنى في صفوف الحملة

الصليبية الخامسة - تخيَّل! - وقد سمح له بإلقاء موعظة في حضرة السلطان الملك الكامل في العام ١٢١٩م.

❖ سافر الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني Frederic II من سلالة ستوفن Stauffen، والذي كان يتكلم العربية ويحيط نفسه بعلماء مسلمين، إلى القدس مسالمًا في العام ١٢٢٩م، وحل ضيفًا على السلطان الملك وأصر على أن يؤذن للصلاة بحضوره.

❖ أصبح ليو الإفريقي Leo Africanus (١٤٩٠ ـ ١٥٥٠) وهو مسلم أندلسي، مستشارًا للبابا في روما.

❖ تحول صلاح الدين الأيوبي (١١٣٧-١١٩٣) والذي ألحق الهزيمة الحاسمة بالصليبيين، إلى بطل أسطوري في الغرب لفروسيته وصدقه وعلمه.

❖ اكتسبت حكايات الحيوان "كليلة ودمنة" في الغرب شعبية واسعة تماثل الشعبية التي اكتسبتها حكايات "ألف ليلة وليلة".

❖ استوحى دانتي Dante في الكوميديا الإلهية Divina Comedia من وصف الإسراء والمعراج.

❖ حققت قصة ابن الطفيل الفلسفية "حي بني يقظان" نجاحًا باهرًا في الغرب، وقد أساء دانيال ديفو Danial Defoe نقلها إلى قصته روبنسون كروزو Robinson Crusoe.

❖ استلهمت الأغاني التروبادورية الفرنسية من وحي الموشحات الأندلسية و"طوق الحمامة" لابن حزم.

ويمكن بسهولة أكبر تتبع إسهامات الإسلام الثقافية في مجالات الفلسفة، والعلوم الطبيعية، والهندسة المعمارية، والزراعة، والحرف اليدوية. فكتابات جالين Galen عرفت طريقها إلى إيطاليا من خلال ترجمتها إلى العربية، وأعادت باريس اكتشاف أرسطو Aristotle بفضل تفسير ابن رشد. أما مقدمة ابن خلدون، فقد اكتشفها الغرب في وقت متأخر لتصبح أساسًا لعلم الاجتماع والتاريخ المعاصر. والقوس القوطي في الكاتدرائيات الغربية من أصول شرقية أيضًا.

أما في القرن الثامن عشر، فقد لعب الإسلام دورًا رئيسًا في معركة مفكري ذلك العصر أمثال فولتير Voltaire (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨)، وليسنج Lessing (١٧٢٩ ـ ١٧٨١)، وفريدريك الثاني Frederic II ملك بروسيا (١٧١٢-١٧٨٦)، وجوته Goethe (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) ضد الظلامية وسيطرة فساد رجال الدين المسيحيين. وقد اتخذ الإسلام كمرآة عقلانية لمحاربة إساءات الكنيسة المسيحية في وسط أوروبا.

وحتى في أيامنا هذه يصعب التمييز بين ما هو غربي حقًا وبين ما نتج عن التأثير الإسلامي في تطور الحضارة الغربية، فهذه الحضارة ليست بأي حال من الأحوال مجرد حضارة يهودية-مسيحية، بل هي يهودية-مسيحية-إسلامية.

وطيلة الفترة موضوع البحث، كانت هناك حروب ونزاعات وصراعات مصالح، نعم، كانت هناك نزاعات اقتصادية وحدودية. ولكن أين كانت في كل ذلك الوقت الصراعات الثقافية؟ ومتى حدث ـ خلال تلك الفترة الطويلة ـ أي صراع بين الحضارتين المسيحية والإسلامية؟

الدلالات الضمنية لفرضية هنتنجتون:

قد يكون صمويل هنتنجتون على خطأ، ولكنه قطعًا ليس غبيًا، لذلك يمكننا أن نفترض بثقة أنه - بينما يمكن أن تكون عبارة "صراع الحضارات" تسمية غير صحيحة، فإن هنتنجتون قد أشار إلى شيء حقيقي، وهو في الواقع قد قيَّم بذكاء تأثيرات:

- ❖ الكونية الدينية بشكل عام.
- ❖ الكونية الدينية الإسلامية بشكل خاص.

وبينما يتيح تعدد الآلهة لكل قبيلة أو أمة أن تعبد الإله أو الآلهة التي تختارها، تؤمن الديانات الموحدة بإله واحد للجميع، وهي بالضرورة كونية، كما أنها بالتالي توسعية. وهكذا فإن كل ديانة موحدة بالله تشكل تهديدًا لكل ديانة أخرى.

ومن هذه الزاوية نرى أن الإسلام هو دين كوني بامتياز، فمن وجهة نظر المسلمين، يعد أي شخص يسلم لله مسلمًا، وأن الإسلام هو دين البشرية جمعاء، أي " **إن الدين عند الله**

الإسلام ".[١] ويرى آخرون أن هذه النظرة شمولية، أي على سبيل المثال تضمين جميع أنبياء اليهود، من إبراهيم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام، في سلسلة مسلمة واحدة.

كذلك فإن الإسلام لا يتوقف من ناحية أخلاقية عند أي حدود. وكما قال الثوري الكوبي الشيوعي الرومانسي تشي غيفارا Che Guevara (١٩٢٨ ـ ١٩٦٧)[٢] : "لا يمكننا أن نعد بأن لا نصدر مثالنا؛ لأنه مثال أخلاقي، والأمثلة الأخلاقية لا تعرف أي حدود". وهذا قول ينطبق أيضًا على الإسلام؛ لأن الإسلام يعد نفسه كذلك بديلاً أخلاقيًا.

أدرك المسلمون الأوائل هذه الحقيقة فورًا، وهو ما يظهر من خلال رسائل النبي محمد ﷺ التي وجهها في العام ٦٢٨م ودعا فيها كل زعماء القبائل المحيطة بالمدينة إلى الإسلام.[٣]

---

(١) القرآن الكريم، ٣:١٩ " إن الدين عند الله الإسلام ".

(٢) داعية ثوري، أشرف على الإصلاح الزراعي في كوبا. أسرته قوات حكومية وأعدم في العام ١٩٦٧ .

(٣) لمزيد من التفاصيل، انظر: حياة محمد، ابن اسحق، ترجمة أ. جيلوم A. Guillaume، أوكسفورد، ١٩٥٥، ص ٦٥٢-٦٥٩ .

لقد بدأت عولمة الإسلام من خلال تلك الرسائل، فالمسلمون لم يقسموا العالم إلى مناطق جغرافية، بل إنهم انطلاقًا من روح الكونية الحقة قسموا العالم كله إلى قطاعين فقط: دار الإسلام، أي الأمم التي انطوت تحت لواء المد الإسلامي، ودار الحرب، أي الأمم التي لا زالت خارج نطاق ذلك المد. وقد عنى ذلك من حيث المفهوم أن المسلمين قد رأوا منذ فجر الإسلام أن الدين الحنيف هو دين البشرية جمعاء، وأن غياب الإسلام عن أي بقعة من بقاع الأرض إنما هو غياب مؤقت.

ومثلما نجد في صدور المسلمين قناعة بأن محمدًا ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وهي قناعة لا تزال قائمة منذ ١٤٢٠ سنة قمرية، فإنهم قد لا يعتقدون بصحة "نهاية التاريخ" كما أوردها فرنسيس فوكوياما، ولكنهم يوقنون بنهاية التاريخ الديني[١] - وهو يقين قد يخيف الكثير من الغربيين وليس صمويل هنتنجتون وحده.

---

(١) لقد طرح علي المزروعي وجهة النظر الصحيحة هذه في مقالته "الإسلام ونهاية التاريخ"، المجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية، هيرندون، فرجينيا، المجلد ١٠، العدد ٤، شتاء ١٩٩٣، ص ٥١٣ .

ولا شك بأن هنتجتون قد أخذ هذا الوجه الإسلامي في حسبانه، ليس فقط كخطر نظري لنشوء صراع بين الإسلام وبين الديانات الأخرى، ولكن أيضًا كخطر ملموس، واضح وموجود، كما يستدل من السرعة الفائقة لعودة انتشار الإسلام في جميع أنحاء العالم.

على الرغم من أن الإسلام هو في تكوينه دين البشر أجمعين، غير أنه لم يتمكن من السيطرة سوى على جزء محدود من العالم، يمتد شرقًا من إسبانيا والمغرب إلى الهند وإندونيسيا وآسيا الوسطى. وحتى في هذه المنطقة تحول المسلمون في عصر الإمبريالية الاستعمارية إلى مجرد أشياء على هامش التاريخ، لا حول لهم ولا قوة.[١]

وبالقياس إلى العصور المظلمة التي عاش خلالها العالم الإسلامي لبضعة قرون في انحطاط وتقهقر ويأس وانكفاء على الذات، تبدو صحوته في الآونة الأخيرة وكأنها معجزة على أقل تقدير. لقد شهد الإسلام صحوة ونهضة هائلتين خلال السنوات الخمس والثلاثين الأخيرة بجهود قلة من

(١) نفس المصدر، ص ٥٢٧ .

الأفراد الملتزمين أمثال: شاه ولي الله (١٧٠٣-١٧٦٢)، ومحمد بن عبد الوهاب (١٨٤٩-١٨٨٧)، وحسن البنا (١٩٠٦-١٩٤٩)، ومحمد إقبال (١٨٧٥-١٩٣٨)، ومحمد أسعد (ليوبولد وايس Leopold Weiss الأسترالي الذي اشتهر باعتناقه الإسلام). وللمرة الأولى في تاريخ الإسلام نجد الإسلام يتجدد من خلال ما يسمى بحركات إسلامية، لا يرأسها في الغالب رجال دين بل علماء درسوا في الغرب وصهرتهم الإيديولوجية الحديثة.

لقد تزامنت هذه الصحوة مع الهجرة الجماعية الأولى للمسلمين إلى أوروبا الغربية وشمال أمريكا، ومع تطور فضاء الإنترنت.

ولذلك تحول الإسلام - الذي كان دائمًا كونيًا في تطلعاته - خلال القرن العشرين إلى دين كوني حقًا لأول مرة في تاريخه. وهناك اليوم ٣٠ مليون مسلم يقيمون على التراب الأوروبي، وقد بنيت مساجد ضخمة في أماكن مثل: لوس أنجلوس، ونيويورك، ولندن، وباريس، وبروكسل، وفيينا، وروما، وزغرب، وأصبح للإسلام وجود على الإنترنت.

وهكذا نجد مبررًا لمخاوف صمويل هنتينجتون من ردود الفعل في الغرب بسبب الصدمة الثقافية وسعيه إلى الحد من الهجرة الإسلامية.

وفي هذا الصدد، نجد رالف برايبانتي Ralph Braibanti، وهو صديق عظيم لباكستان وأستاذ فخري للعلوم السياسية، وزميل لصمويل هنتنجتون، أكثر تفاؤلاً، فهو يرى أن هناك تقاربًا أكيدًا بين الكنائس المسيحية، بما فيها الكنيسة الكاثوليكية، وبين الإسلام. ويقول: إن الطائفية المذهبية والاحترام المشترك للشريعة الإلهية والقيم المشتركة الاجتماعية والأخلاقية تشير كلها إلى أرضية مشتركة مسيحية إسلامية قادرة ليس فقط على إزالة الخلافات، ولكنها قادرة أيضًا على إنقاذ العالم الغربي.

واستنتاجات برايبانتي مدهشة إلى درجة أقتبسها هنا كاملة:

" في هذه اللحظة من التاريخ نجد أن ديناميكيات وقيم الإسلام الواضحة قادرة نظريًا على إيقاف الانحطاط الأخلاقي في العالم. فالحضارة اليوم تواجه خطرًا لا يتهدد

القيم الإسلامية وحدها، بل قيم كل الذين يؤمنون بالعالم الآخر. هناك حصار على البعد الضمني للروح، فلو استطاع الإسلام أن يربط نظام قيمه بالقيم المشابهة للعالم غير الإسلامي والتأثير على المجتمع بالقضية المشتركة، يكون قد حقق هدفه الذي نص عليه القرآن الكريم".[١]

(١) الإسلام والغرب: قضية مشتركة للصراع؟"، رالف برايبانتي، المجلة الأمريكية للدراسات الاجتماعية الإسلامية، المجلد ١٦، العدد ١، ربيع ١٩٩٩، وجامعة جورجتاون، واشنطن دي سي، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩٩، ص ٤٧ .